بسم الله الرحمن الرحيم

أ. صالح عسكر

كلية العلوم الإسلامية-باتنة

التخصص: الكتاب والسنة

الهاتف: 0675111742

البريد الإلكتروني: salah.askar@univ-batna.dz

askarsalah@gmail.com

عنوان البحث المقترح: **تداخل البعد العقدي والتشريعي والعلمي في الأحاديث النبوية، ومدخل الشبهات حولها، والمنهج الصحيح في الإجابة عنها -أحاديث الطب وعلم الأجنة أنموذجا-.**

الملخص:

إن المتأمل للأحاديث النبوية التي تثار حولها الشبهات تحت دعوى مخالفتها للكشوف العلمية يلحظ أن الأحاديث قد وردت ابتداء في بيان بعض المسائل العقدية أو التشريعية، وفي وسط هذا السياق تناول كلام النبي صلى الله عليه وسلم في معرض بيانها بعض المسائل العلمية أو الكونية، ثم كانت -بعد ذلك- مدخلا عند بعض أدعياء العلم للطعن -لا في تلك الأحاديث فقط-، بل في كل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسنته، وربما تعدى الأمر إلى الطعن في القرآن الكريم وفي الإسلام كله.

من هذا الباب تطرح هذه الورقة دراسة مسألة التداخل بين المضامين العلمية والعقدية والتشريعية في الأحاديث النبوية وفهم مداخل الطعن فيها وإثارة الشبهات حولها، واستجلاء معالم المنهج الصحيح

لفهمها ثم الرد على تلك الشبهات التي تثار حولها، مستندة على بعض النماذج من أحاديث حوت بعض الإشارات التي تتعلق بالطب وعلم الأجنة.

التداخل بين المضامين العلمية والعقدية والتشريعية في الأحاديث النبوية:

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم[i]، ولقد أرسله الله سبحانه وتعالى معلما للقرآن الكريم ومبينا له بقوله وفعله وتقريره، وإن الذي يطلع على السنة القولية يجد أنها قد حوت كثيرا من الأحاديث التي تحدث فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور تتعلق بما يعرف اليوم بعلوم البيولوجيا والفلك والبحار ونحوها مما يندرج ضمن العلوم الكونية.[ii]

وحين اهتم الناس بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية برز التركيز على هذا الجانب من الأمور العلمية المتعلقة بالكون والإنسان في الأحاديث النبوية. وقد تأثرت هذه الدراسات المعاصرة بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يعيشه المسلمون، والذي جعلهم يحتلون مرتبة متأخرة في ركب الأمم. وهكذا طفق المشتغلون بالإعجاز العلمي يطابقون بين ما ورد في الأحاديث النبوية وبين ما توصلت إليه الدراسات في مختلف المجالات العلمية والكونية، متخذين ذلك وسيلة للتدليل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى كونه معلما من عند الله سبحانه وتعالى، وإلا أنى له أن يخبر بما لم يستطع الناس أن يتوصلوا إليه إلا بعد قرون من البحوث والكشوف العلمية؟

ومع تكاثر تلك الدراسات وتعددها أصبحت تتسرع في إطلاق الأحكام واستخلاص الخلاصات واستنتاج النتائج، وربما فرضت على الأحاديث بعض المعاني التي تكون دلالتها عليها ضعيفة أو متكلفة أو حتى منعدمة وجعلتها هي المقصد الأوحد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن جهة أخرى فإن هذه البحوث والمقالات والدراسات كادت تنسى المقصد الذي ورد لأجله الحديث، وتتغافل عنه بصفة كلية، ولا ترى في الأحاديث إلا تلك الإشارات العلمية، وربما تجاوزت حدها إلى الحط من فهم الفقهاء وشراح الحديث، أو إلى إسقاط منهج التصحيح والتضعيف بالحكم على الحديث الضعيف بالصحة لمطابقته لنتائج بعض الكشوف العلمية، ولو قبل هذا فلا بد أن يطرح

عكسه يوما ما وهو الحكم على الأحاديث الصحيحة بالضعف لما قد يتوهم بعضهم من أنها مخالفة لبعض الكشوف العلمية.

وإن المتأمل لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وإن لم ينكر أنها قد حوت كثيرا من الإشارات العلمية على ما يعرفه الباحث المنصف، يلحظ أن هذه الإشارات العلمية قد وردت فيها بصورة تابعة، وأن المقصد الأساس الذي وردت لأجله تلك الأحاديث هو بيان كثير من المسائل العقدية والتشريعية وأن ما تعلق فيها بعلوم الكون والإنسان ونحوها قد ورد فيها بصفة تابعة ولم يرد ورود الأصل في الحديث غالبا. مثال ذلك حديث البرق الذي ورد فيه أنه يذهب ويجيء[iii] وهي حقيقة علمية لم تعرف إلا بعد اكتشاف آلات التصوير التي تستطيع أن تلتقط آلاف الصور في الثانية[iv]، غير أن من تأمله وجد أن الإشارة فيه وردت على أنها فائدة زائدة عن أصل المعنى الذي سيق الحديث لأجله، وهو بيان صفة الصراط يوم القيامة، وصفة مرور الناس عليه، وعلاقة ذلك بالإيمان باليوم الآخر الذي هو ركن من أركان عقيدة المسلم.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لغويا ولا أديبا ولا طبيبا ولا عالم نفس أو اجتماع ... ولكنه أورد أصول هذه العلوم في حديثه، فمن القرآن الكريم الذي أنزل عليه ثم من حديثه عليه الصلاة والسلام نشأت علوم البلاغة والبيان، ومن النظر فيهما وقع التصنيف في علوم وفنون شتى، ثم إن ما ورد في كلامه شارك أهل كل فن من الفنون في طرف من صنعتهم فلم يستطيعوا لكلامه نقضا ولا أثبتوا عليه خطأ، وهو مع ذلك يصف بألفاظه الجامعة أصول هذا الفن وجوامعه بمفردات وعبارات مختصرة جامعة من غير أن يخوض في تفاصيله، فهو في الطب مثلا –الذي هو موضوع هذا البحث– لا يصف الأدوية لكل مرض على التفصيل، ولا يبين الأدوية والجرعات والمقادير، ولكنه يشخص السبب الواحد لأمراض متعددة، ويصف الدواء الواحد لأسقام كثيرة، ولأهل الاختصاص أن يتأكدوا من ذلك ببحوثهم ويكتشفوا الجرعات والمقادير لكل علة على التفصيل –وتفصيل هذا في بحث آخر إن شاء الله –. فهو يشير إلى الأصول ولا يذكر التشخيص والمقادير والوصفة، ولكن هذا يجعله في النهاية يصف العلاجات للأمراض المتعددة ويوجه للبحث في تفاصيلها. وأكثر الأحاديث ذات المضامين الفيزيائية أو الطبية أو نحوها ... تناولتها كإشارات وبالمقصد التابع لا بالأصالة .

وعليه: فإن المقصد العقدي والفقهي والتشريعي في الحديث الذي هو الأساس مفهوم وواضح، والإشكال إن ورد يرد على الفرع الذي هو المعلومة العلمية أو الطبية.

ثانيا: مداخل الطعن في الأحاديث وإثارة الشبهات حولها بدعوى مخالفتها للعلم:

وفي مقابل الذين تناولوا الإعجاز العلمي في السنة النبوية، سعت فئة أخرى من الناس إلى الطعن في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسنته، فالتمست لذلك كل وسيلة ممكنة، ومن ذلك ادعاء وجود أخطاء علمية في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل والطعن في القرآن الكريم نفسه، ويجمع هؤلاء جميعا كرههم للإسلام وتشريعاته و أحكامه، ورغبتهم في إزاحتها عن كل مظاهر الحياة. ولئن كان بعضهم يعلن كفره وعداوته للإسلام وكتابه ونبيه صلى الله عليه وسلم كالملحدين والصليبيين والوثنيين وغيرهم، فإن فئات أخرى منهم تزعم أنها تنتمي لهذا الدين ولهذه الأمة وأنها تنطلق في نقدها من خلفية الحرص على تنقية الإسلام من أمور علقت به ليست منه. وبعضهم يستتر وراء قناع التفكير والتجديد طلبا للشهرة، وكثير منهم مستخدمون من قبل جهات خبيثة كارهة للإسلام ومحاربة له لمحاولة هدمه من داخله. وأخطر من هؤلاء جميعا صديق جاهل ينطلق من سذاجة وبساطة في التفكير يعتقد أنه جاء فيها بما لم تستطعه الأوائل، يطعن في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير فاهم لها أو مدرك لمعانيها، بالإضافة إلى كونه -غالبا- قليل الزاد حتى في العلوم المادية وحظه منها أماني وأوهام يتخطفها هنا وهناك، يحسبها علما ينقد به الوحي من غير منهج ولا فهم ولا إدراك. وربما آزر هؤلاء بعض حسني النية -من حيث لم يشعروا-؛ إذ يسارعون إلى رد الشبهات الصحيحة بردود بسيطة ساذجة وهم يعتقدون أنهم قد جاءوا بشيء، أو ربما اعتقدوا أن كلامهم البسيط الساذج فاصل في كل مسألة تكلموا فيها ولو بالأوهام والأماني، فيثبتون الشبهات ويلزقونها بالسنة -بل بالقرآن- إذ يفشلون في الإجابة المنطقية الصحيحة عنها، وكم من خائض في ما لا يفهم لو اكتفى بالسكوت لأحسن.

وإذا تأملنا عموم الشبهات التي تثار حول الأحاديث النبوية -ومنها الأحاديث التي لها علاقة بالطب والعلاج-، وجدناها تحوم حول بضعة أمور وتتمحور حولها:

1. عموم تلك الشبهات تنطلق من سوء فهم للحديث، أو تتعمد تحريف معناه لتضفي عليه مفهوما ساذجا ومناقضا للعقل والعلم، وبعضها يعرض تلك المفاهيم في صور كاريكاتورية مستهزئة ليحول النقاش إلى دائرة السخرية والاستهزاء من أجل أن يتجنب أي نقاش علمي ويغلق الأبواب دونه. ويجمع طارحي هذه الشبهات جميعا أنهم لا يعرضون أبدا صيغة الحديث ولفظه، ولكنهم يجتزئون منه جزءا يؤولونه على المعنى الذي يريدونه، وكثيرا ما ينقلونه بألفاظ لهم غير ألفاظه محرفة لمعناه، ويعرضونه على الصورة التي تنسب إليه الجهل والسذاجة ومخالفة العلم، والارتباط بالخرافة والأوهام.
2. بالإضافة إلى ذلك، فإن مثيري تلك الشبهات قد يتعمدون توظيف بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة للطعن في السنة النبوية غير آبهين بالتأكد من صحتها وثبوتها عن النبي صلى الله عليه وسلم، مع جهل تام وكامل ومتعمد –ومدعم بالإصرار والاستهزاء والاستخفاف– بمنهج الحديث وتصحيحه وفهمه وشرحه، ومنهج الجمع بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وجمع أطراف الحديث وألفاظه ومقارنتها وجعل بعضها مبينا لبعض... وهذه أمور لا ينكرها أصحابها بل يفتخرون بها.
3. كثير من أصحاب تلك الشبهات معارفهم العلمية بسيطة وساذجة، ولكنهم يتوهمون أوهاما ويتمنون أماني أو يرددون محفوظات سمعوها لا علم لهم بصحتها إن كانوا فاهمين لمعانيها أصلا، ثم يجعلونها علما مستوثقا منه واعتقادا راسخا غير قابل للنقاش يعارضون به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، بل وحتى نصوص القرآن الكريم.

وبناء على ما سبق، فإن الطعن على السنة النبوية مدخله عدم الفهم أو التحريف أو قلة البحث والتدقيق أو محاولة التعمية والتغطية على المعلومة العلمية أو الجهل بها.

ثالثا: معالم المنهج الصحيح لفهم الأحاديث التي حوت إشارة لمضامين علمية والرد على تلك الشبهات التي تثار حولها:

من منطلق إيماننا واعتقادنا الذي تضافرت الأدلة المختلفة على توثيقه وتأكيده، فإننا نعلم أنه لا يمكن أن يوجد تعارض بين حقيقة علمية ثابتة وبين نص حديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم الصادق

المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى وما ضل وما غوى؛ لأنه وحي يوحى من عند الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم. فإن بدا أن هناك تعارضا فلخطأ في الفهم؛ إما مرتبطا بالحديث لفوات تفصيل فيه، أو مرتبطا بالمسألة العلمية التي ورد خلل في فهمها، أو أن ما يوصف بأنه حقيقة علمية وهم ستنقضه تجارب مستقبلية ويتبين خطأه، أو أن فيه شيئا لم يتم معرفته واكتشافه بعد... ولذلك فنحن نسلم ابتداء بأن ما ورد في الحديث هو الحق، وأن ما عارضه هو الباطل.

أما على المستوى التطبيقي، ومن أجل محاولة فهم الأمور فهما صحيحا، فإن المنهج الأصوب في دراسة الشبهات التي تثار حول الأحاديث التي تحوي مضامين علمية يرتكز على مرتكزات ثلاثة:

- أولا: التأكد من صحة الشبهة ومن استنادها لأساس علمي وانطلاقها من منطلق منطقي صحيح.
- ثانيا: دراسة الحديث أو الأحاديث بمنهج المحدثين ووفقا لما قرره الشراح وعلماء الفقه والأصول من الجمع بين الطرق والمقارنة بين الروايات والجمع بينها، وبيان العلل الخفية فيها، وإيضاح غريبها ومحاولة فهمها فهما صحيحا.
- ثالثا: دراسة الحقائق العلمية دراسة صحيحة والتأكد من مضامينها ثم مقارنتها بالحديث ومضمونه والتأكد من أوجه التطابق أو الاختلاف.

أولا: التأكد من صحة الشبهة:

كثير من الشبهات التي تورد على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم –والأحاديث الصحيحة منها بصفة خاصة– تستند –لا على حقائق علمية–، بل على مجرد تخيلات وأوهام. وإن البحث المعمق والنظر المدقق في الشبهة يكشف تفاهتها والأوهام الخفية فيها. والشبهة عند ذلك لا تحتاج إلى رد علمي عليها، بل تحتاج إلى من يبين تفاهتها وسفاهة العقول التي توردها وهي تتلبس زورا بلباس العقل والعلم والفهم والعبقرية والتجديد والذكاء وغيرها من الأوهام والتخيلات .

مثال ذلك حديث الذباب المشهور وهو ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال النبي صلى الله عليه وسلم:"إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء"[v]

وقد طعن من طعن في هذا الحديث تحت دعوى أن الذباب يحمل الجراثيم والبكتيريا والفيروسات الضارة ويؤدي وقوعه على الطعام إلى إصابة من يأكله بالأمراض، وجعله خطأ في الحديث يتخذه ذريعة -لا للطعن في هذا الحديث الذي ثبت سنده-، بل في كل السنة النبوية والدعوة إلى إعادة النظر فيها.

وإن من تأمل هذه الشبهة وجدها قد بنيت على خطأين:

- أحدهما: خطأ علمي منهجي ويتمثل في أن قائل هذا الكلام عليه أن يقوم ببحوث يثبت فيها أن الذباب لا يحمل في أحد الجناحين شيئا يسبب الأمراض، وفي الثاني مضادا لهذا الذي يسبب الأمراض. والمسألة علميا شديدة التعقيد لأن فاعل ذلك يحتاج إلى أن يعزل كل أنواع الجراثيم والبكتيريا و الفيروسات الموجودة على جناحي الذباب ويقوم بدراستها ودراسة تأثيرها، وهو عمل كبير تعجز عنه مخابر ومؤسسات صحية كبرى، ويجب أن ترصد له ميزانيات ضخمة، وليس الأمر مجرد أوهام وتخيلات كما يعتقد بعض السذج وذوي المعارف السطحية البسيطة الذين توهموا أنهم قد أحاطوا بكل شيء علما.
- والخطأ الثاني خطأ في فهم خلفية الشبهة نفسها؛ فإن وراء هذه الشبهة استقذار كثير من الناس للذباب ونفورهم من تناول الطعام الذي وقع عليه، وصاحب الشبهة يتوهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بأكل هذا الطعام الذي وقع عليه الذباب، وهو جهل فاضح فإنه صلى الله عليه وسلم لم يزد عن أن بين أن هذا الطعام الذي وقع عليه الذباب ليس نجسا وجب رميه وإلقائه، وأن لمن كان محتاجا لأن يأكله أن يفعل إن لم يكن يعافه، بعد أن يغمس الذباب فيه ثم يطرحه، وقد يكون الإنسان محاصرا ممنوع من الطعام أو مسجونا أو بأرض بها مجاعة أو يشعر بعطش شديد ... وفي مثل هذا الموقف تصبح معافة الطعام أو الشراب والنفور منه لوقوع ذبابة فيه ترفا إن لم يكن جنونا، والحديث لم يعد أن يبين أن الحرج مرفوع عمن يريد تناوله. أما استقذار الطعام بسبب وقوع الذباب عليه أو لأي سبب آخر فهو مسألة نسبية تختلف من شخص لشخص ومن بيئة لأخرى، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في حديث

الضب أنه لا حرج على الإنسان في أن يترك طعاما حلالا تعافه نفسه كما فعل هو عليه الصلاة والسلام.[vi]

ومن شواهد ذلك أن هؤلاء الذين يطعنون في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه لا يعيبون على بعض الأجناس –التي يشعرون أمامها بالدونية– ما تضمنته أعرافها من أكل النجاسات ولحوم الكلاب والأشياء المتعفنة وتقديمها في أفخر المطاعم والتباهي بذلك.

ويجب التنبيه إلى ضرورة دراسة صحة الشبهة أولا وعدم المبادرة للإجابة عنها وهي غير حقيقية، فإن في ذلك تثبيتا لها وإضفاء لصفة الصحة والوجاهة عليها.

ثانيا وثالثا: دراسة الجزء الحديثي وفق منهج علوم الحديث والأصول، ثم مقارنته ودراسته في ضوء الكشوف العلمية الصحيحة:

إن كانت أغلب الشبهات التي تورد على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تستند على مجرد تخيلات وأوهام –كما تقدم–، فإن بعض الشبهات صحيحة، وتستدعي نظرا متأنيا لكشف مصدر اللبس فيها، وإننا في الغالب لن نحتاج إلا إلى إعادة تطبيق قواعد المنهج الصحيح في فهم الأحاديث النبوية، والتي حدنا عنها بسبب الغموض الذي اعترى فهمنا فلجأنا إلى تأويل بعيد ألغينا به المعنى الذي دل عليه ظاهر النص. وقد صار شراح الحديث إلى هذا التأويل لأن المعنى الصحيح الموافق لظاهر الحديث مما لا سبيل إلى إدراكه قبل تطور العلوم وتقنياتها ووسائلها.

مثال ذلك: شبهة "جمع الخلق"؛ وهي شبهة لا يعرفها الملحدون والطاعنون في السنة لأنهم قوم لا يقرؤون ولا يصبرون على القراءة حقا، وحظهم من كل العلوم أماني وظنون، إذ العلم بها يحتاج إلى قراءة كتب الحديث وشروحها وهو شيء لم نعلمهم أبدا فعلوه، ولا أنهم كانوا أبدا باحثين عن الحق ولا مجتهدين في محاولة معرفته أو الوقوف عليه.

وتتمثل الشبهة في المعنى الذي فسر به شراح الحديث قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المشهور:"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه ...".

ومن الواضح أن "جمع الخلق" جمع مادتين مختلفتين مفرقتين هما بذرة خلق الإنسان، ومن السهل على من يملك اليوم بعض المعلومات البسيطة أن يتوقع أنهما الحيوان المنوي من جسد الرجل والبويضة من جسد المرأة، ولكن أحدا لم يكن ليفكر في ذلك منذ قرنين لا من العلماء ولا من الأطباء. وعليه فقد التبس الأمر على شراح الحديث فقالوا إن "جمع الخلق" جمع النطفة بعد تفرقها في جسد المرأة، وكان وراء الفهم الخاطئ لنص الحديث توظيفهم لزيادة ضعيفة (نطفة) خالف راويها جميع الحفاظ الذين رووا الحديث من دون هذه الزيادة وهم لا يتصورون أن لها تأثيرا في تبديل المعنى، وصعوبة تصور وجود جزأين مفرقين في جسدي الرجل والمرأة، وتساهلهم في شرح الحديث بروايات ضعيفة لما لم يبد لهم أنها تعارض أصلا صحيحا، وتسرب معارف الأطباء إليهم التي كانوا لا يجدون حرجا في تعلمها ولا يردونها إلا إذا عارضت صريح القرآن والسنة. ومن الواضح أن تصور حقيقة "جمع الخلق في بطن الأم" الذي هو جمع "مادتي الخلق ممثلة في المادة الجينية التي تحمل البويضة نصفها والحيوان المنوي نصفها الآخر والمفرق في جسدي الرجل والمرأة" لم يكن ممكنا أو متخيلا إلى عهد قريب، وكان المؤثر الأساس في المسألة هو تطور آلات البحث –خاصة المجهر–، والتي سمحت بملاحظة واكتشاف أمور دقيقة وصغيرة جدا.

ولنبدأ بما كان وراء الفهم الخاطئ لنص الحديث أولا.

1–زيادة "نطفة" غير محفوظة مما يجعل "جمع الخلق" مرحلة قبل العلقة والمضغة:

لو قرأنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم بصيغته الصحيحة المحفوظة التي رواها أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وتجردنا من أي خلفية ودلالة علقت بالأذهان من قراءة شروحه، لوجدنا أن ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم "جمع خلق الإنسان" يشير إلى مرحلة سابقة لمرحلة العلقة:"يجمع خلقه في بطن أمه ... ثم يكون علقة".

فجمع الخلق وصف لمرحلة سابقة للعلقة، أما زيادة "نطفة" فهي زيادة غير محفوظة خالف راويها جميع من روى الحديث، ولكن الشراح تساهلوا فيها ووظفوها في كل شروحهم لما لم يظهر لهم أنها قد تغير المعنى.قال ابن حجر:"ووقع عند أبي عوانة من رواية وهب بن جرير عن شعبة مثل رواية آدم لكن زاد نطفة بين قوله أحدكم وبين قوله أربعين"[vii].

ويؤكد ذلك إطلاق وصف النطفة (الأمشاج) على كل المراحل "جمع الخلق والعلقة والمضغة" في حديث حذيفة بن أسيد "تستقر النطفة في الرحم..."، وكذا في حديث جابر وأنس وغيرهما.

2-صعوبة تصور الأمر:

ما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم من "جمع للخلق" كان يصف شيئا لم تبلغه معارف الأطباءولم يكن بمقدور شراح الحديث إدراكه لتعلقه بشيء خفي لم يعرف إلا بتطور آلات البحث ووسائله، ولذلك اعتمد الشراح على مبلغ معارفهم التجريبية التي كانت بسيطة في ذلك الوقت فأخطؤوا.

وكان أول من أبدى رأيا في المسألة القرطبي، قال الشيخ أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي المحدث:" قوله" : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما:« يعني- والله تعالى أعلم : -أن المني يقع في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدافعة مبثوثا متفرقا ، فيجمعه الله تعالى في محل الولادة من الرحم في هذه المدة.[viii] »

ويبدو أن هذا التفسير لم يكن بعيدا عن التجربة وما يقوله الأطباء في ذلك الوقت، و صرح أبو العباس القرطبي —وهو الذي نقل الشراح عنه- باعتماد التجربة والمشاهدة. قال:" ولم يختلف: أن نفخ الروح فيه بعد مئة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر، ودخوله في الخامس، وهذا موجود بالمشاهدة ، وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف ..."[ix].

وقد وجد شراح الحديث في كلام القرطبي هذا مخرجا من الإشكال الذي أوقعهم فيه عجزهم عن تصور الشيء المفرق الذي يجمع فرددوه.

3-التساهل في شرح الحديث الصحيح بالروايات الضعيفة

لم يقف أبو العباس القرطبي رحمه الله عند حد طرح هذا الرأي، بل زاد على ذلك أن نسب هذا التفسير لابن مسعود رضي الله عنه من رواية ضعيفة، وحتى نسبة القول في الرواية على كونها ضعيفة إليه خطأ ووهم كما بينه ابن حجر. قال:"وقد جاء في بعض الحديث عن ابن مسعود -رضي الله عنه -تفسير : "يجمع في بطن أمه " : أن النطفة إذا وقعت في الرحم ، فأراد الله تعالى أن يخلق منها بشرا

طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر وشعر ، ثم تمكث أربعين ليلة ، ثم تصير دما في الرحم ، فذلك جمعها "[x].

وقد تنبه ابن حجر لذلك فنقل كلام القرطبي في كون المني مفرقا في جسد المرأة ثم يجمع ناسبا إياه إليه مع أنه لم ينقده، فقال:"قال القرطبي في المفهم: المراد أن المني يقع في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدافعة مبثوثا متفرقا فيجمعه الله في محل الولادة من الرحم"[xi].

ولكنه بين خطأ نسبته إلى ابن مسعود رضي الله عنه، فقال:"قال ابن الأثير في النهاية: يجوز أن يريد بالجمع مكث النطفة في الرحم: أي تمكث النطفة أربعين يوما تخمر فيه حتى تتهيأ للتصوير ثم تخلق بعد ذلك. وقيل: إن ابن مسعود فسره بأن النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا طارت في جسد المرأة تحت كل ظفر وشعر، ثم تمكث أربعين يوما، ثم تنزل دما في الرحم فذلك جمعها.[xii]

[ثم قال] قلت: هذا التفسير ذكره الخطابي وأخرجه بن أبي حاتم في التفسير من رواية الأعمش أيضا عن خيثمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود. وقوله فذلك جمعها كلام الخطابي أو تفسير بعض رواة حديث الباب وأظنه الأعمش، فظن ابن الأثير أنه تتمة كلام ابن مسعود فأدرجه فيه. ولم يتقدم عن ابن مسعود في رواية خيثمة ذكر الجمع حتى يفسره"[xiii].

فإذا ثبت أن كلام أبي العباس القرطبي مبناه على التجربة، وأن الروايات التي وظفت في بيان الحديث الصحيح روايات واهية، لم يبق إلا أن نقول إن هذه الشروح كانت تعبر عن معارف الأطباء في ذلك الوقت.

يقول البروفسور كيث مور:" في القرن الرابع قبل الميلاد ،كتب أرسطو أول أطروحة معروفة في علم الأجنة ، والتي وصف فيها تطور الفراخ وغيرها من الأجنة. يعتبر العديد من علماء الأجنة أن أرسطو هو "مؤسس علم الأجنة" بالرغم من حقيقة أنه روج لفكرة أن الجنين نشأ من كتلة عديمة الشكل نتجت عن اتحاد السائل المنوي مع دم الحيض.

كتب جالينوس (القرن الثاني بعد الميلاد) كتابًا بعنوان "في تكوين الجنين" ووصف فيه تطور وتغذية الأجنة والبنى التي نسميها الآن السقاء والسلى والمشيمة.

في العصور الوسطى: كان نمو العلم بطيئًا خلال فترة العصور الوسطى ، وقليل من النقاط العالية التحقيق التي أجريت خلال هذا العصرفي علم الأجنة معروف لنا"[xiv].

الشبهة المركبة:

إن كان الخطأ في الشبهة السابقة بدر من شراح الحديث –رغم أن الأمر مفهوم– والجواب عنه بسيط، يكفي فيه الفصل بين صريح ألفاظ الحديث وإضافات الشراح لزوال الإشكال وتوضح الأمر، فإن بعض الشبهات تراكبت فيها جملة من الأشياء يأتي على رأسها دقة المسألة وشدة خفائها، ثم نتج عن هذه الدقة والخفاء فوت تفاصيل في شرح الحديث، وأضاف إليها الطاعنون في السنة –على سبيل الكذب والافتراء– معاني لم يقل بها أحد، وحين رد الباحثون في الإعجاز العلمي عليهم سكتوا عن الكذب والخداع الذي أضافه الطاعنون في السنة ولم يبينوا أنه خداع وكذب فكانوا كالمسلم بصحته، وحين أجابوا عن الشبهات أصابوا في بعض الجواب ولكنهم أخطأوا أيضا في بعضه فأصبح هذا الخطأ شبهة أخرى تحتاج إلى جواب.

نتحدث في هذ الباب تحديدا عن شبهة "علم ما في الأرحام" التي تتعلق بأحاديث صحيحة فسرت آيات قرآنية وتتناول قضية عقدية متعلقة بعلم الله، وحسبك بها شبهة خطيرة تمس الوحيين وعقيدة المسلمين.

–هذه الشبهة تتعلق بواحدة من كبرى قضايا العقيدة، أي بصفات الله سبحانه وتعالى التي له كمالها وصفة العلم منها تحديدا.

–وتتعلق بالقرآن الكريم الذي أنزله بعلمه وجعله آية صدق نبيه صلى الله عليه وسلم، وبنبوته عليه الصلاة والسلام وكونه معلما من الله ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى.

–كما تتعلق بسنة النبي صلى الله عليه وسلم التي فسرت آيتين من القرآن الكريم إحداهما في سورة الأنعام، والأخرى في سورة لقمان. فقد روى البخاري وأحمد وغيرهما، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله ». وعن ابن عباس في قوله:{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب } قال : هنّ خمس:{ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة } إلى قوله : { عَلَيمٌ خَبِيرٌ } [لقمان : 34] ".

فقوله صلى الله عليه وسلم: « مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله» يشير إلى قوله سبحانه في سورة الأنعام:"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)"[الأنعام]" .

وفي رواية البخاري "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:"مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ:{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}".

وتخصيصه صلى الله عليه وسلم "علم ما في الأرحام" بـ "ما تغيض الأرحام" ربط لها أيضا بآية ثالثة من سورة الرعد وهي قوله سبحانه:"اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)"[الرعد].

وبالنظر في هذه الآيات فإننا نلحظ بوضوح شديد أمورا قد تفيدنا في فهم "علم ما في الأرحام":

–أحدها: أن "ما تغيض الأرحام" شيء آخر غير الحمل وغير المولود وغير السقط كذلك لأن السقط حمل لم يكتمل.

–والثاني: أنه واحد من خمسة أمور غيبية استأثر الله سبحانه وحده بعلمها.

–والثالث: أن الصفة التي تجعله من مفاتح الغيب هي نفسها التي تجعل الأمور الأربعة الأخرى من مفاتح الغيب.

ولأن مثيري الشبهات حول السنة النبوية والطاعنين فيها ليسوا أمناء، فقد ادعوا أن علم ما في الأرحام يعني علم جنس الجنين في بطن أمه وفي أي فترة من الفترات وبأي وسيلة من الوسائل، وهذا مخالف لمفهوم الأحاديث ولا يوجد فيها ما ينص على ذلك.

كما ادعوا أن تحديد جنس الجنين بالمنظار الصوتي بعد تصور أعضائه مخالف لما ورد في السنة النبوية بل وفي القرآن الكريم، وهذا لا يعبر عن جهلهم بالإعجاز العلمي فقط وبما كتب الباحثون فيه مما شاع وانتشر حتى علمه عوام المسلمين وأقر به بعض الباحثين الغربيين غير المسلمين ، بل ويعبر عن جهلهم الواضح بما ورد في الأحاديث ومدلولاتها وأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء فهمها فهما محايدا ولو كانوا كارهين لها.

ولأنهم لا يتورعون عن الكذب والتدليس، فقد حاولوا أن يوهموا أن تقنية تصوير الجنين بالموجات الصوتية ورؤية أعضائه الدالة على جنسه بعد تخلقها وتصورها شيء مبتكر غير في فهم النصوص وكشف أخطاء في السنة النبوية، وأن تحديد جنس الجنين بواسطة تحليل جينات الخلايا التي قد نأخذها من السائل المحيط بالجنين يخالف ما ورد في القرآن والحديث، ويجعلنا نعلم ما في الأرحام الذي ينص القرآن الكريم وتصرح السنة النبوية بأن الله سبحانه وتعالى قد استأثر بعلمه.

وسنقوم بدراسة الشبهة وفق الخطوات السابقة: التحقق من الشبهة ثم دراسة الأحاديث بمنهج الشرح والاستنباط المضبوط ومقارنتها بنتائج البحوث العلمية الصحيحة

وحين نحقق في الشبهة نجد أنها تتضمن عنصرين:

1. هل معرفة جنس الجنين أو أي شيء عنه في الرحم علم لما في الأرحام؟
2. الزمن الدقيق الذي نصت السنة على تحدد جنس الجنين فيه ضمن صفات أخرى

وسندرس كل عنصر بتطبيق الخطوتين الأخريين.

1–هل معرفة جنس الجنين أو أي شيء عنه في الرحم علم لما في الأرحام؟

يدعي الطاعنون في السنة أن "علم ما في الأرحام" هو علم جنس الجنين داخل الرحم بعد تميز أعضائه وتخلقها، فإذا طبقنا ما ينص عليه المنهج المعروف من بيان النصوص وتفسيرها بالقرآن أولا ثم بالسنة، وجدنا أن بيان معنى "علم ما في الأرحام" ورد في أعلى وأجود وأصح أنواع التفسير، وهو تفسير النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وقد روي من طرق عديدة وصحيحة، ولأجل ذلك لم يشك أحد من المسلمين في أن "علم ما في الأرحام" علم ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم "ما تغيض الأرحام"، وهو شيء غير الحمل وغير الولد الذي يولد كاملا بصريح القرآن الكريم. وهذا يكشف أن زعمهم أن الأحاديث تتحدث عن جنس الجنين أو أي صفة أخرى من صفاته بعد تخلقه داخل الرحم.

بل يكشف أنهم يتوهمون –ويصبح وهمهم يقينا عندهم– أن العلماء لم يكونوا يتصورون أنه يمكن علم جنس الجنين في الرحم وأنهم اكتشفوا شيئا جديدا لم يكن معروفا عندهم. وهو شيء سخيف عند من لديه أدنى اطلاع على كلام المفسرين؛ فغيض الأرحام لا علاقة له بالمولود الذي تخلق في الرحم لأنه كائن موجود، بل بمن لم يوجد بعد أو بمن لن يوجد أبدا؛ فقد عده القرآن الكريم وكذا النبي صلى الله عليه وسلم من مفاتح الغيب. ومفاتيح الغيب هذه لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى لأنها محجوبة بحجاب الزمن إذ هي أمور متوقعة في المستقبل قد تقع أو لا تقع، ولا يعلم أحد إذا ما وقعت ما هي الصفة التي ستقع عليها. وقد كان الأمر واضحا وغير ملتبس عند المفسرين وهو الكلام الذي ينصون عليه جميعا لأن المسألة عندهم تخرج عن مفاتيح الغيب بمجرد اطلاع مخلوق عليها حتى ولو كان ملكا مقربا من الملائكة أو الملك الموكل بالأرحام لأن الله سبحانه وتعالى إذا أعلم بها مخلوقا لم تعد من مفاتيح الغيب ولكن صارت شيئا معلوما ولو عند هذا الملك وهذا ما ينص عليه جميع المفسرين.

وفكرة تحديد جنس الجنين طبيا نفسها فكرة قديمة مقبولة عند المفسرين طبقا لمعارف كل عصر من العصور، وقد كان المفسرون يفرقون بين التجربة والنظر (العلم التجريبي) الذي يستجلي ما غاب خلف حجاب الرحم، وبين "الكهانة" التي تدعي أنها تستجلي ما غاب خلف حجاب الزمن، والفرق بينهما شاسع بعيد.

علم ما في الأرحام بين السنة والعلم المادي:

"ما تغيض الأرحام" واحد من خمسة أمور غيبية استأثر الله سبحانه وحده بعلمها؛ ومعنى أن الله سبحانه وتعالى قد استأثر بعلمها أنه جل وعلا لم يطلع عليها أحدا من خلقه، وحتى الملائكة لا تعلمها. فهي تتميز من بين سائر أمور الغيب الأخرى بخاصة تنفرد بها، فإن الله سبحانه وتعالى يطلع ملائكته على ما يقضيه ومنه طرف من أمور الغيب التي هي كائنة في المستقبل، والحمل في الرحم لا يمكن أن يكون منها، لأنه يمكن التوصل إلى معرفته بواسطة الأسباب ولو بشق بطن الحامل. واندراج هذه الأشياء ضمن مفاتح الغيب لا يجعلها كذلك إلا بسبب كونها غيبا بالنسبة إلى حجاب الزمن حتى يزعم أحد أن الناس إذا استطاعوا أن يحددوا جنس المولود عن طريق تحليل الجينات عند الجنين أو نجحوا في تسريع نزول المطر فقد خرقوا حجب الغيب.

ثم وجدنا بيانا فاصلا في معناه في حديث لقيط بن عامر ينص فيه النبي صلى الله عليه وسلم على أن "ما تغيض الأرحام" هو المني؛ أي الذي يدخل رحم المرأة ولا يكتب له أن يخلق منه بشر، قد علمه الله سبحانه وتعالى وأحاط به علمه وانتهى علم البشر وسائر الخلق إلى قطرة من بحر تحولت منه إلى بشر، حتى إذا فتح الله عليهم فعلموا تفصيلا من تفاصيله اغتروا فظنوا أنهم صاروا أعلم من الله –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا–، وليس بعد بيانه عليه الصلاة والسلام بيان .

و"الغيض" الذي يحدث للمني في الرحم يشبه ما حدث للماء في الأرض بعد طوفان نوح عليه السلام:"وغيض الماء"؛ أي أن الأرحام تقوم بشكل ما بإنقاص هذا الماء وإفساده وإتلافه وابتلاعه وإجفافه.

وهو ما يؤكده علم الأجنة الذي ينص على : أن الحيوانات المنوية تواجه عددا من المعيقات والحواجز في مجرى الجهاز التناسلي للأنثى، وبعد القذف ، يبدأ سباق الحيوانات المنوية ، لا من حيث السرعة فقط، ولكن أيضًا من حيث القدرة على التحمل. وهكذا يتم استبعاد الحيوانات المنوية المعيبة وضعيفة الحركة، وبالإضافة إلى الارتجاع المهبلي، تموت كثير منها بسبب درجة حموضة المهبل المرتفعة، ويتعرض الباقي لهجمات جهاز المناعة، إذ تعتبر خلايا الدم البيضاء عند المرأة أن الحيوانات المنوية خلايا معادية وتحاول تدميرها، وما نجى منها يواجه مخاط عنق الرحم الذي يكون سائلًا سميكًا ولزجًا خاصة خارج

فترة الإباضة مما يعقد مرور الحيوانات المنوية، كما يعتبر التكوين الداخلي للعضو التناسلي الأنثوي (المهبل ، عنق الرحم ، الرحم ، قناتي فالوب) في حد ذاته عقبة أمام الحيوانات المنوية، ويحتوي على العديد من التجاويف التي تسمى الخبايا والتي ينتهي فيها المطاف بالعديد من الحيوانات المنوية عالقة. والعدد القليل الذي سيصل إلى قناة فالوب حيث البويضة سيموت أيضا، فعند نجاح واحد منها في تلقيح البويضة تطلق الحبيبات القشرية ، وهي عضيات تمنع دخول أي حيوان منوي آخر.

هذه "الدفاعات" تجعل الرحم "يغيض" ويفسد ويجفف وينقص الجزء الأكبر من هذه الحيوانات المنوية والتي يمثل كل واحد منها مشروع بشر لم يكتب له أن يخلق، وقد علمه الله سبحانه وتعالى وهو غيب لم يكتب له أن يكون.

ثانيا: الزمن الدقيق الذي نصت السنة على تحدد جنس الجنين فيه ضمن صفات أخرى:

إن طرح التطور العلمي شبهة حقيقية حول تحديد جنس الجنين وصفاته، فقد طرح شبهة لا يفهمها الطاعنون في السنة لمحدوديتهم العلمية وتواضع مستواهم، ونحن لا نجد حرجا في طرحها من باب الأمانة والثقة بأن نبينا صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق لا ينطق عن الهوى، وهذه الشبهة هي أن جنس الجنين تحدد في الجينات منذ اليوم الأول من اجتماع الخليتين الذكرية والأنثوية، وإن كان تصوير أعضائه وما ينتج عنها من إمكان مشاهدة جنسه بالآلات لن يحدث إلا بعد أربعين يوما أخرى.

وبعبارة مختصرة: يؤدي التصوير إلى ظهور الجنس، أما تحدد هذا الجنس فقد وقع قبل أربعين يوما من هذا التصوير، فإن تحدثت الأحاديث عن اختيار الجنس بعد أربعين يوما من اجتماع الحيوان المنوي والبويضة وداخل الرحم فإن هذا خطأ فيها، وإن تمكن أحد من معرفة هذا الجنس قبل التصوير لم يعد من مفاتيح الغيب.

هل نصت الأحاديث على اختيار الجنس بعد أربعين يوما من جمع الخلق داخل الرحم؟

الأحاديث التي وردت في تصوير النطفة في الرحم صحيحة ومشهورة وأشهرها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم:" إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ...".

وهذه الأحاديث تتطابق تطابقا كاملا مع ما توصل إليه علم الأجنة، والمسألة صارت مشهورة ومعروفة منذ أكثر من أربعين سنة. وهي كلها تتحدث عن تصوير النطفة في الرحم ثم نفخ الروح فيها، وجميعها لا تتضمن الإشارة إلى الذكورة والأنوثة أو إلى صفات أخرى كالجلد والشعر ونحوها، ولكن من فسرها على أنها تطابق مرحلة ما بعد الغيض فعل ذلك لأن تصوير النطفة يبرز أعضاءها الجنسية فتعرف أذكر هي أم أنثى؟ وهو خطأ مردود على قائله وليس في الأحاديث نص عليه ولا إشارة إليه.

أما جنس الجنين و شعره وجلده... فلم يرد إلا في حديث واحد لا يتعلق بتصوير النطفة في الرحم تماما، وهو حديث استشكله العلماء قديما ولم يهتدوا إلى وجه الجمع بينه وبين الروايات الأخرى حتى ترك الإمام البخاري مثلا روايته مع صحة سنده. وإن دراسة هذا الحديث بتمعن، قد بينت أنه يتحدث عن النطفة وهي في جسد الرجل لا بعد دخولها رحم المرأة خلافا لكل الأحاديث الأخرى التي تتحدث عن تصوير النطفة في الرحم.

هذا الحديث هو الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا. فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها. ثم قال: يارب! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء. ويكتب الملك. ثم يقول: يارب! أجله. فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك. ثم يقول: يارب! رزقه. فيقضي ربك ما شاء. ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده. فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص" .

وبعد البحث الذي يستعمل قواعد علم الحديث وعلم الأصول والتي تنص على تقديم الجمع بين النصين على الترجيح بينهما، وأن زيادة الثقة زيادة صحيحة مقبولة، نجد أن النطفة المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة" هي النطفة في جسد الرجل لا بعد دخولها في الرحم وأنها غير ما ذكر في حديث عبد الله بن مسعود والروايات والأحاديث الأخرى التي نصت على التصوير في الرحم.

فإذا قارنا ما نص عليه حديث حذيفة بما توصل إليه علم الأجنة ظهر لنا الإعجاز النبوي في الإخبار الدقيق عن الوقت الذي يتحدد فيه الجنس وصفات أخرى في جنين لن تجتمع مادتا خلقه إلا بعد قرابة شهر من تحدد تلك الصفات –وهو غيب لا يمكن أن يعلمه أحد من الخلق– ولن تتصور أعضاءه فيمكن معرفة جنسه بالآلات إلا بعد أربعين يوما أخرى، وبيان ذلك:

–تتم الخلية التي تنتج الحيوان المنوي إنقسامها الأخير بعد أربعين يوما منتجة لأربع خلايا تحمل نصف عدد الكروموزومات، وفي الليلة الثانية والأربعين، ومهما كان الوقت الذي بدأ فيه انقسام الخلية من الليل أو النهار، تكون قد نشأت عن الخلية الأم أربع خلايا كل خلية منها تحمل خصائص الذكورة والأنوثة مع خصائص أخرى كبنية الجلد واللحم والعظام وسائر الخصائص المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه. والمرحلة التالية المكملة للستين أو الأربع وستين يوما تتم فيها فقط إضافات تعطي التكوين والشكل النهائي للحيوان المنوي (النطفة) من غير أي تبدل أو تغير في الخصائص الوراثية ومنها الذكورة والأنوثة.

–وبعد الليلة الثانية والأربعين يحتاج الحيوان المنوي الذي اكتسب الخصائص الوراثية كاملة إلى مدة تفوق أربعا وعشرين يوما، وهي توافق مدة دورة مبيضية تنضج فيها البويضة وتخرج إلى قناة فالوب حيث تلتقي مع هذا الحيوان المنوي على قدر ليتم التلقيح واجتماع الخصائص الوراثية الكاملة، وفي حالة تقدم أحدهما أو تأخره فلن يحدث الإخصاب، أي أن هناك توافقا في التوقيت بينهما.

– والليلة الثانية والأربعون من تشكل الخلية المنوية لا توافق فقط تميز الصفات في الخلية الوارثة من الرجل (الأب)، ولكنها توافق أيضا الليلة الرابعة عشر بعد الطمث عند الأم (وقد لا يكون الأبوان قد تعارفا أو التقيا بعد) وهي الليلة التي يحدث فيها إعدام البويضة الناضجة المكتملة في المبيض لأنها إن لقحت فلن يتم تلقيح البويضة التي تتوافق مع هذا الحيوان المنوي والتي لن تخرج من المبيض إلا بعد دورة مبيضية جديدة، و لن تصل إليها هذه الخلية الذكرية إلا بعد أكثر من أربع وعشرين يوما بعد ذلك على الأقل.

وأعجب من ذلك أنه في هذا اليوم أيضا، والذي يتوسط دورة الحيض، "و عند منتصف الدورة المبيضية (14 يوما قبل دورة الطمث المقبلة) , ينمو الجريب [الحامل للبويضة المقبلة] بصورة ملحوظة و يبرز كتورم علي سطح المبيض , و علي هذا التورم تظهر بقعة غير وعائية تسمى بالعلامة

(stigma) , و في نفس الوقت تنفصل البييضة الثانوية عن جدار الجريب من الداخل و تحاط ببعض خلايا الركام البيضي ". أي أنه في هذه الليلة بالذات يتم اختيار الخلية الذكرية التي ستتطور لتصبح حيوانا منويا، كما يتم أيضا اختيار الخلية الأنثوية التي ستتطور بعد ذلك لتصبح بويضة.

-ومما يؤكد أن هناك توافقا واختيارا مقدرا مسبقا ما كشفت الدراسات من وجود مراسلة بين الحيوان المنوي والبويضة داخل الرحم، وقد اتضح أن البويضة تختار الحيوانات المنوية التي تريدها: فإن كانت البويضة تريد وصول بعض الحيوانات المنوية إليها، فإنها ترسل إشارات كيميائية تخبرها أن تسبح بشكل أسرع، أما الحيوانات المنوية التي لا تريد البويضة وصولها إليها، فإن هذه الإشارات التي ترسلها تحملها على الإبطاء. وبمجرد أن يصل الحيوان المنوي إلى قناة فالوب ويلتقي بالبويضة ، فإنه يتلامس مع الجاذبات الكيميائية في السائل الجريبي. ووجد الباحثون أنه من المحتمل أن يكون أقوى الحيوانات المنوية على قيد الحياة ولكن لمجرد أن البويضة اختارت أن يحدث ذلك.

-لم تقل الأبحاث إلى حد الساعة صراحة: إن البويضة تراسل حيوانا منويا بعينه، فهي تنص على أن الحيوانات المنوية التي تصل إلى البويضة في النهاية من بين مائات الملايين تعد على الأصابع، ثم تجتمع البويضة مع واحد منها وترسل رسالة بإغلاق الباب أمام الباقين.

التفصيل الوحيد الذي ما زال ناقصا، هو أن تنص البحوث على أن البويضة اختارت هذا الحيوان المنوي تحديدا لتوافق قديم بينها وبينه كان يجعلها تحتاج للتعرف عليه فقط من بين هذه الحيوانات المنوية التي راسلتها، باستظهاره لبطاقة هوية تعرفها هي، وهو فقط من يحملها. والباحثون يعترفون أن بحوثهم ما زالت في البداية رغم النتائج العجيبة والمذهلة التي بدأت تنكشف من خلالها، وأن أسرارا أخرى ما زالت غير معروفة.

-ملايين الخلايا المنوية تصل إلى مرحلة التمايز في الليلة الثانية والأربعين، ولكن أحدا من الخلق لا يعلم ما هي الخلية التي سيخلق الله منها بشرا، ويُعتقد أن الحيوان المنوي الذي سيخترق البويضة يحمل شفرة تجعله هو الوحيد الذي يؤذن له في اختراق البويضة من دون عشرات أو مائات ملايين المنافسين. وأول مخلوق سيعلم ذلك هو الملك الذي يرسله الحق عز وجل لكتابة ذلك، وعند ذلك يخرج علم وجود هذا الإنسان وجنسه ولونه وأجله وعمله ... عن كونه من مفاتيح الغيب لأنه سبحانه أوحى بها إلى الملك.

شبهة السبق والعلو وتقدير الشبه بهما:

وهي واحدة من الشبهات الشهيرة التي تثير إشكالا، لدرجة أن الطاعنين في السنة استبشروا بها واعتبروها –على حد زعمهم– دليلا واضحا على وجود الأخطاء والخرافا في السنة النبوية.

–وإذا قمنا بدراسة الشبهة تبين لنا أن الملحدين والطاعنين في السنة النبوية يعترون ما يتوهمون أنهم قد علموه منتهى علم الأولين والآخرين، ولا يشكون مجرد الشك في أنهم قد أخطؤوا في فهم شيء أو أن تفصيلا من التفاصيل قد فاتهم، وانطلقوا من يقينهم الذي بنوه على فراغ وجهل فقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفرق بين ماء المرأة الذي يسبب الاحتلام والبويضة التي منها مادة الخلق، وجزموا جزما قاطعا بألا دور لماء المرأة في تحديد الذكورة والأنوثة، ويضيفون بشكل حاسم: ألا دور لماء المرأة إلا في ترطيب المسالك التناسلية، وألا وجود لأي إفرازات مهبلية في غير حالة الإثارة، وهو سلوك الجهال لا سلوك العلماء الذين لا يستبعدون أي فرض قبل اختباره والتأكد من بطلانه.

–ومجرد نظرة بسيطة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم تكشف –بما لا يدع مجالا للشك– أن الماء المقصود هو الماء الذي يحصل من الشهوة والاحتلام ويجب منه الغسل، وهو ما يعرف اليوم بإفرازات غدتي سكين وبرتولين، ومن جهة أخرى فإن هذه الأحاديث التي نقلها كبار الحفاظ، وإن خفيت معانيها على الناس، يعسر تخيل تطرق الخطأ إليها، وعادة ما ينكشف في طياتها ما يؤكد مرة بعد مرة على أنه عليه الصلاة والسلام معلم من الله ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى.

–وجزم الملحدين الطاعنين في السنة بألا دور لماء المرأة في تحديد الجنس يدل على أن قائله جاهل يجهل أنه جاهل، وكلامه يثير الضحك عند بعض المثقفين ثقافة عامة فضلا عن العلماء المختصين، فإن العلماء والباحثين لا يستبعدون أي افتراض قبل اختباره، فكيف وقد اختبروه وتيقنوا من صحته وحاولوا حتى توظيفه واستغلاله قبل أن يولد من يردد هذا الكلام؟؟!! فمنذ ستينات القرن الماضي، قام لوندروم شتلس مثلا باختبار دور الإفرازات الأنثوية في انتقاء جنس الجنين، وتردد صدى بحوثه في أروقة الفاتيكان

مما جعل البابا نفسه ينتقدها علنا، وقد ألف كتابا في نتائج بحوثه طبع سنة 1970 وتكررت طباعته أكثر من عشر مرات إلى نهاية الثمانينات . والأطرف من ذلك كله أنه اقترح طريقة لاختيار الجنس بناء على هذه البحوث.

-أما زعمهم ألا وجود لإفرازات أنثوية في غير حالة الإثارة فجهل فاضح، فعلى الرغم من أن العلمانيين والملحدين يتظاهرون بالفهم ويدعون العلم إلا أنهم أبعد الناس عن العلم وعن المنهج العلمي، ومجرد تحقيق بسيط لما يدعون أنه معلومات علمية ثابتة سرعان ما يفضحهم ويكشف جهلهم. وإنك تجدهم يخطفون نصف معلومة ويقومون بترديدها ظانين أنهم قد أحاطوا علما بكل تفاصيلها وهم لا يجارون تلاميذ الثانويات في معلوماتهم عنها، كما يتضح من كلامهم في هذه الجزئية. فإن الإفرازات المهبلية التي تحدثوا عنها هي جزء صغير جدا من الإفرازات الأنثوية التي تفرزها غدة "برتولين" وتساهم فيها غدة "سكين" وهناك إفرازات أخرى لعنق الرحم وغيرها.

وإن دراسة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تؤدي إلى نقيض مقصودهم تماما فقد تضمنت الإخبار بأمور لم يتوص إليها العلم التجريبي إلا حديثا، وبعضها لم يتوصل إليه بعد ونتائج البحوث الأولى تؤكد ما أخبر به النبي صلى الله عليه ، ومنها:

أولا-الإخبار عن الإفرازات الجنسية للمرأة عند الإثارة (إفرازات غدتي سكين وبارتولين):

مسألة حساسة كهذه يبدو أن كثيرا من النساء لا يعرفنها، ومن تعرفها تتكتم عليها لما تحمل من حساسية تخدش حياء المرأة، وقد سألت أم سلمة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم عنها لضرورة قاهرة وهي معرفة الأحكام المتعلقة بالعبادة وما يرتبط بها من الطهارة والغسل الواجب للصلاة والطواف ونحوها..فلما أجابها النبي عليه الصلاة والسلام بوجوب الغسل عليها سألته أيكون ذلك في المرأة؟؟!! (أي أنها تلتبس حتى على النساء) وهي تشعر بالحياء، وكذلك علقت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عليها بما يؤكد على ذلك فقالت لها:"تربت يداك وألت"؛ أي أثارت حساسية المسألة التي تجعل المرأة الحيية تخجل من مجرد ظهور أثر يشير إلى وجود الإثارة الجنسية عندها ولوكانت غريزة طبيعية، وقد يدفع ذلك إلى عدم الحديث في المسألة أو عدم التفكير في فهمها

أصلا، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين أحكام الطهارة، وفي السياق نفسه بين عليه الصلاة والسلام أن هذا شيء خلقي لا حرج في السؤال عنه، وأهم من ذلك كله أنه زاد إضافة هي موضع هذا البحث ودليل من دلائل كونه صلى الله عليه وسلم معلما من الله وهو تأكيده على وجود هذا الماء ووصفه للفرق بينه وبين ماء الرجل ودوره في في التأثير في اختيار المادة التي يكون منها مشابهة المولود أعمامه وأخواله.

فعن أنس بن مالك أن أم سليم [وهي أم أنس]حدثت أنها سألت نبي الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل" فقالت أم سليم: واستحييت من ذلك. قالت: وهل يكون هذا؟ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم "نعم. فمن أين يكون الشبه. إن ماء الرجل غليظ أبيض. وماء المرأة رقيق أصفر. فمن أيهما علا، أو سبق، يكون منه الشبه" .

وعن عائشة؛ أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال "نعم" فقالت لها عائشة: تربت يداك. وألت. قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "دعيها. وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله. وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه" .

ومع تطور العلوم أظه توالبحوث أن الإفرازات التي تفرزها المرأة عند الإثارة الجنسية تأتي من نوعين من الغدد: غدد سكين وغدد بارثولين، ومن الواضح أنهما غدتان لم تكونا معروفتين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم للأطباء فضلا عن معرفة وظائفهما، بل ومع وجود أنواع مختلفة من الإفرازات الأنثوية فمعرفة وجود هذه الإفرازات عند الإثارة الجنسية عسير حتى على النساء فضلا عن الأطباء، فغدد سكين وُصفت للمرة الأولى في عام 1672بواسطة الطبيب الهولندي رينييه دي فراف، وكذلك غدد بارثولين أول من وصفها في القرن السابع عشر هو عالم التشريح الدنماركي كاسبار بارثولين. وأُضيف لغدد سكين مصطلحُ البروستاتا الأنثوية "female prostate" ليكون مصطلحًا ثانٍ بعد الغدد المجاورة للإحْليل "paraurethral gland" في ترمينولوجيا هستولوجيكا عام 2002 بواسطة اللجنة الفيدرالية

الدولية للمصطلحات التشريحية . وتُشير ملاحظات طبعة عام 2008 إلى أنَّ المصطلح أُضيف بسبب الأهمية الشكلية والمناعية للهيكل التشريحي.

وهذا يجعل علماء التشريح يعترفون من حيث لا يعلمون بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أن هذه الإفرازات الأنثوية "ماء المرأة" تقابل علميا "الإفرازات الرجالية" المعروفة عند الإثارة الجنسية "ماء الرجل" ومصدرها البروستاتا، بل تكوينهما متقارب .

فعلى خلاف ما يزعم المبطلون، فإن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب تضمنت الإخبار عن أمور معجزة بعضها ما زال قيد البحث إلى اليوم وهي:

-الإخبار عن الإفرازات الجنسية للمرأة عند الإثارة (غدتا سكين وبارتولين) كما تقدم.

-الإخبار عن تأثير الميراث الجيني لكل من الأب والأم في الشبه (أعمامه وأخواله)

-ومع ذلك لم يلغ تأثير الصفات المتنحية.

-الإخبار بتأثير عملية السبق والعلو في الجنس والشبه.

ثانيا: الإخبار عن تأثير الميراث الجيني لكل من الأب والأم في الشبه (أعمامه وأخواله):

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تأثير الميراث الجيني لكل من الأب والأم في الشبه (أعمامه وأخواله) وورد ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم:"إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله. وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه"، وقد تضمن إشارته عليه الصلاة والسلام لمشابهة الولد لا لأمه أو أبيه، بل لأعمامه وأخواله، وذلك أن الولد قد لا يشبه أباه أو أمه بل بعض أعمامه وأخواله، والسبب وجود صفات وراثية متنحية في جينات أبيه وأمه ظهرت في بعض أعمامه أو أخواله.

ويقول العلم المادي إن الإنسان يرث نصف حمضه النووي من أمه ونصفه الآخر من والده. و لكل إنسان زوج من أزواج الكروموسومات ، يأتي أحدهما من والدته والآخر من والده. وهو نفسه سوف ينقل واحدًا منها فقط إلى الجيل التالي ، ولكن قبل ذلك ، سوف يختلط هذان الكروموسومان، بشكل عشوائي ، في شرائح. هذه الظاهرة ، التي تسمى إعادة التركيب ، تعني أنه لن يختفي أي من الأجداد

تمامًا في "لعبة الاحتمالات" الجينية الكبيرة للتكاثر. وكلما كانت المعلومتان موجودتان بقرب بعضها على الكروموسوم – مثل بعض الجينات التي تؤثر على لون العين – قل احتمال فصلهما أثناء إعادة التركيب. وهناك احتمال كبير أن تنتقلا معًا أو تستبعدا معًا. وهذا هو السبب في أن الإنسان قد يبدو مثل فرد من عائلته أكثر من غيره، ويؤدي هذا الاختلاط إلى أنيحتفظ الإنسان بآثار جميع أسلافه. من خلال إعادة التركيب ، ربما فقد الإنسان كل الحمض النووي الذي ورثه من سلف قديم ، لكنه من حيث المبدأ يحمل كل التاريخ الجيني لعائلته.

ثالثا: ظهور الصفات المتنحية الموجودة في الميراث الجيني:

رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى مسألة الشبه وأن الأب أو الأم ينزعان الولد فيشبه أعمامه أو أخواله، فإنه عليه الصلاة والسلام صرح بأن بعض الصفات التي تخالف صفة الأب قد تظهر في الولد مع أنه ابن أبيه لأنه ورثها من أحد أسلافه أو كما يصفها علماء الوراثة بالصفة المتنحية، فقال للأعرابي حين شكك في ولده لأنه ولد أسودا:"هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:"مَا أَلْوَانُهَا؟". قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ:"هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:فَأَنَّى ذَلِكَ؟" قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ:"فَلَعَلَّ ابْنَكَ هذا نزعة".

فتعبيره صلى الله عليه وسلم ب "نزعه عرق" تبسيط لفكرة وجود الصفة المتنحية في الميراث الجيني للإنسان ثم ظهورها في أحد الأجيال.

ويقرر علم الوراثة أن بعض السمات لا تظهر على الإنسان ولكنها تظل مخزنة دافئة في الغرفة الخلفية من حمضه النووي ، وعلى استعداد للظهور مرة أخرى في الجيل التالي. وهذا يفيدنا في مسألة مهمة وهي أن الشبه لا يبنى على صفة واحدة ولا يؤثر فيه اختلاف بعض الصفات ولو كانت بادية ظاهرة كاللون الذي كثيرا ما يخطئ الناس بسببه لظهوره.

رابعا: الإخبار بتأثير عملية السبق والعلو في الجنس والشبه.

بينت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أن العلو هو الذي يؤثر في الشبه والجنس ولكننا إذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى فقد يتبين لنا أن العلو والسبق ليسا متضادين ولكنهما مرحلتان متعاقبتان؛

أي أن السبق يؤدي إلى العلو، وحينئذ يكون سبق ماء الرجل سببا لعلوه، وسبق ماء المرأة سببا لعلوه. فإذا تقرر ذلك، لم يصبح السبق ضدا للعلو، بل للأمر الثاني الذي ذكر في حديث ثوبان وهو الاجتماع. فنخلص من الأحاديث إلى حالتين:

- الحالة الأولى: حالة السبق فأي الماءين سبق علا فكان منه الجنس والشبه.
- الحالة الثانية: حالة الاجتماع، وفي هذه الحالة قد يعلو ماء الرجل أو ماء المرأة وأيهما علا فمنه الجنس والشبه.

أما الجنس والشبه فهما أمران متلازمان، فالذكر يشبه الأب والأعمام، والأنثى تشبه الأم والأخوال.

وفكرة العلو واضحة في ما يتعلق بماء الرجل، حيث تسعى الحيوانات المنوية دائما للوصول بأقصى سرعة إلى عنق الرحم وتجنب الارتجاع والهروب من البيئة الحمضية للمهبل. وهي إذا وصلت إلى عنق الرحم تكون فعليا قد علت إفرازات المرأة التي مصدرها غدد سكين وبارتولين الموجودة في المهبل بالإضافة إلى حموضة المهبل التي تعد مدمرة لها. أما لو تم إنزال الحيوانات المنوية في الجزء السفلي من المهبل، وهي الحالة التي يعلو فيها ماء المرأة ماء الرجل فإن هذه السوائل ستتعرض لحموضة المهبل بالإضافة إلى الإفرازات الأخرى من غدد سكين وبارتولين كما تتعامل معها الدفاعات المناعية على أنها أجسام ضارة. والدراسات القليلة التي تناولت هذه الحالة تشير إلى أنه قد يتم الاحتفاظ بأقل من 1٪ من الحيوانات المنوية في الجهاز التناسلي الأنثوي وهذا يدعم فكرة أن أقلية فقط من الحيوانات المنوية تدخل بالفعل مخاط عنق الرحم وتصعد أعلى إلى الجهاز التناسلي الأنثوي .

ويمكن أن نستخلص بسهولة أن هذا ال 1٪ من هذه الحيوانات المنوية يمثل الحيوانات المنوية الأكثر مقاومة وهي المنتجة للإناث.

ومن الواضح أن الحيوانات المنوية عند دخولها للجهاز الأنثوي تخوض سباقا وعليها أن تتجاوز مجموعة كبيرة من الحواجز تؤدي إلى هلاك الجزء الأكبر منها، وسبق ماء الرجل للإفرازات الأنثوية يقربه من الوصول إلى عنق الرحم حيث يتخلص من الحموضة وهجمات أجهزة المناعة التي تتعامل مع الحيوانات المنوية على أنها أجسام غريبة ضارة، ولذلك فإن هذا السبق يحقق لماء الرجل العلو.

و في الحالة العكسية فإن الإفرازات الأنثوية تشكل حاجزا يحقق لها العلو ويؤدي إلى ترجيح كفة الحيوانات المنوية الأبطأ والأكثر مقاومة وهي الحاملة للكروموزم الأنثوي كما لاحظ شيتلس.

أما في حالة افهناك تنافس بين الإفرازات الأنثوية والسائل المنوي وتارة يعلو هذا وتارة أخرى يعلو ذاك، والسائل المنوي مجهز لخفض حموضة المهبل وحماية الحيوانات المنوية منه ومن الإفرازات التي تتعامل معها على أنها أجسام معادية، ويجب أن تتعامل الحيوانات المنوية البشرية ، ولكن لفترة وجيزة ، مع درجة الحموضة للسائل المهبلي. وعادةً ما يكون الرقم الهيدروجيني المهبلي عند النساء خمسة أو أقل ، وهو مبيد للجراثيم وللعديد من مسببات الأمراض المنقولة جنسياً. ويتراوح الرقم الهيدروجيني للبلازما المنوية من 6.7 إلى 7.4 في الأنواع المحلية الشائعة ولديها القدرة على تحييد حمض المهبل. تم قياس درجة الحموضة المهبلية عن طريق القياس عن بعد في زوجين بشريين خصبين أثناء الجماع. ارتفع الرقم الهيدروجيني من 4.3 إلى 7.2 في غضون 8 ثوانٍ من وصول السائل المنوي ؛ بينما، لم يتم اكتشاف أي تغيير عندما تم عزل السائل المنوي. وبالإضافة إلى محاليل الأس الهيدروجيني ، تحتوي البلازما المنوية على مثبطات للاستجابات المناعية ، بما في ذلك المكونات الواقية التي تغلف الحيوانات المنوية.

وقد لاحظ شيتلس أن الحيوانات المنوية الذكرية صغيرة وسريعة وتكون في المقدمة لكنها أقل مقاومة.

وعليه فإن سبق ماء الرجل يؤدي إلى نجاة هذه الحيوانات المنوية الذكرية السريعة وقليلة المقاومة من الإفرازات التي تتعامل معها على أنها أجسام غريبة..

أما في حالة سبق الإفرازات الأنثوية فإنها ستعمل عمل الدفاعات المناعية التي ستقوم بالتخلص من الحيوانات المنوية الذكرية السريعة وقليلة المقاومة لصالح الحيوانات المنوية الحاملة لجين الأنوثة البطيئة ولكنها الأكثر مقاومة وتحملا.

لذلك اقترح في طريقته على من يريد أن يولد له ذكر أن يسعى لإيصال الحيوانات المنوية لأعلى نقطة في المهبل قرب عنق الرحم بالإضافة إلى محاولة تحييد أو تقليل البيئة الحمضية للمهبل القاتلة لهذه

الحيوانات الذكرية الأقل مقاومة. وهكذا يكون قد سعى إلى التدخل في حدوث ما نص عليه الحديث أي:

- السبق: أي جعل الحيوانات المنوية تسبق ماء المرأة وإفرازاتها الجنسية بترسيبها في أعلى نقطة قريبة من عنق الرحم.
- العلو: بمحاولة توظيف الغسل المهبلي في تقوية البيئة الحمضية للمهبل أو تحييدها حسب الرغبة في أنثى أو ذكر

وما يهمنا نحن في هذا الباب أمران:

الأول: أن هذه الطريقة التي يختلف المختصون حول نجاعتها مبنية على ملاحظات علمية مؤكدة تتوافق مع ما ورد في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم سواء أكانت الطريقة التي بنيت عليها صحيحة أم خاطئة أم تحتاج إلى تصحيح.

الثاني: أن شيتلس سواء أوفق أم لم يوفق حاول أن يستعمل عاملين هما الوقت (السبق) والمكان أو البيئة التي توضع فيها الحيوانات المنوية (العلو) وهو بذلك يؤكد من حيث لا يعلم ما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وتركزت أعمال شيتلس على جنس الجنين فقط، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أضافت إليها شيئا آخر قرنته باختيار الجنس وهو شبه المولود بأبيه وأعمامه أو أمه وأخواله..

دور السبق والعلو في الشبه:

قرنت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بين علو ماء الرجل أو المرأة ماء الآخر والإذكار والإيناث، كما جعلت ذلك أيضا سببا لنزع أحدهما الولد أي مشابهته له ولأهله أي أعمامه إن كان الأب وأخواله إن كانت الأم. وبعد النظر في مجموع الأحاديث وجدنا أن الجنس والشبه متلازمان؛ فيشبه الذكر أباه أو أعمامه، وتشبه الأنثى أمها وأخوالها. وهو ما تتجه الدراسات الخاضعة للمناهج العلمية التجريبية لتأكيده، بعيدا عن الذاتية. وحاولت كثير من الدراسات الإجابة على هذا السؤال الحاسم بطريقة علمية: أي من بين والدي الطفل يشبهه أكثر؟

وتقول النتائج إن الأمر يتوقف على العمر والجنس:

- حتى سن عام ، يبدو الأطفال أشبه بأمهاتهم بغض النظر عن الجنس.
- ثم يستمر هذا الشبه بعد ذلك في الفتيات.
- بينما ينعكس الأمر بالنسبة للذكور ، في سن 2 إلى 3سنوات فيصبح مظهرهم الجسدي أقرب إلى مظهر آبائهم.

وتعتزم الأبحاث المستقبلية دراسة الأطفال الذين تزيد أعمارهم عن 6 سنوات. كما سيتم إجراء تجارب مماثلة في سياقات ثقافية أخرى.

و تجدر الإشارة إلى أن مشابهة الولد لأعمامه أو أخواله لا تعني أنه لا يحمل من صفات الطرف الثاني (الأخوال حال مشابهة الأعمام أو الأعمام حال مشابهة الأخوال) شيئا، إنما ذلك على الغالب، بل لا يعني أنه لا تظهر عليه بعض الصفات المتنحية التي لا توجد في قرابته القريبة من الأعمام والأخوال. ومسألة الشبه مسألة دلت السنة النبوية على اعتبارها، ولذلك أخذ بها الفقه .الإسلامي في إثبات النسب في حالات خاصة.

ولأن الحكم بالشبه قد يخضع للذاتية فلا يقبل فيه قول أي أحد، بل يوكل للقافة وهم أهل الخبرة والاختصاص، وقد يلحق بها التحليل الجيني اليوم لانبنائه على أمور علمية وخبرة دقيقة.

---

[i] هي أن يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ المختصرة، وقد ورد ذلك في ما روى البخاري عن سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة قال:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي).
قال أبو عبد الله: وبلغني أن جوامع الكلم: أن الله يجمع الأمور الكثيرة، التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد، والأمرين، أو نحو ذلك.
صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد 2573/6 ح6611، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، 371/1، ح523.

[ii]

[iii]

[iv]

[v] صحيح البخاري، كتاب بدأ باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء. 1206/3 ، ح3142

[vi] عن أَبِي أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ:

أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ سَيْفُ اللَّهِ، أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَيْمُونَةَ، وَهِيَ خَالَتُهُ وَخَالَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا ضَبًّا مَحْنُوذًا، قَدِمَت بِهِ أُخْتُهَا حُفَيْدَةُ

بِنْتُ الْحَارِثِ مِنْ نَجْدٍ، فَقَدَّمَتِ الضَّبَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ قلَّما يُقَدِّمُ يَدَهُ لِطَعَامٍ حَتَّى يُحَدَّثَ بِهِ ويُسَمَّى لَهُ، فَأَهْوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ إِلَى الضَّبِّ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ النِّسْوَةِ الْحُضُورِ: أَخْبِرْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قدمتنَّ لَهُ، هُوَ الضَّبُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَنِ الضَّبِّ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: أَحَرَامٌ الضَّبُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (لَا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ). قَالَ خَالِدٌ: فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم ينظر إلي صحيح البخاري،، كتاب الأطعمة،

باب: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يُسَمَّى لَهُ، فَيَعْلَمُ ما هو 2060/5، ح5076، ومسلم، كتاب الذبائح والصيد وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة الضب 1543/3 ح1945

[vii] فتح الباري 11/479

[viii] المفهم 6/56

[ix] نفسه

[x] فتح الباري 479/11

[xi] نفسه

[xii] قال الخطابي:"وقال أبو سليمان في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه فيكون أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة أربعين يوما ثم يكون مضغة أربعين يوما ثم يبعث الله الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد"

[xiii] فتح الباري 479/11..

[xiv] The developing human with Islamic additions, p8.